وأهداني قبلة لحفيدي

محمد علي طه *

-أ-

لا أجيد مخاطبة الملوك أو الرّؤساء أو الأمراء ولا أعرف أصول الخطاب الرّسميّ. ولا أدري كيف أقف أو أجلس في حضرة أحدهم؛ فأنا لم أقابل رئيساً من قبل، ولا وزيراً، ولا أميراً، فكيف أتصرّف مع رئيس أقدّره وأحبّه؟ مع رئيس وقائد ثوره ملأت الدّنيا وشغلت النّاس؟ مع رئيس نهض مثل عنقاء الرماد من حطام طائرته في الصّحراء الليبيّة التي ابتلعت رمالها العديد من الرّجال ومن الجمال؟ وباختصار: مع رئيس "غير شكل"؟!!

في خزانة ذاكرتي شريط طويل جدّاً يحمل صور البطولة والعزّة والكرامة، للرّجل القائد، لشعبه، ولثوّار العالم. ياسر عرفات يحمل الكلاشنكوف في معركة الكرامة. معركة الصّمود الفلسطيني التي حملت بشائر النّصر الآتي. القائد يسير بثقة على خاصرة نهر الأردن. وأبو عمّار يعانق جمال عبد النّاصر في مطار القاهرة. القائدان المحبوبان والزّعيمان الثوريان. ماذا يقول الواحد للآخر؟ والقائد في حي الفاكهانيّ في بيروت الثّورة والأدب والفن والحضارة. وتطلّ صورة الزّعيم يخاطب العالم من على منبر الأمم المتحدة في نيويورك وغصن زيتونة فلسطينيّة في يده اليمنى ومدفع رشّاش في يده اليسرى. ولا تدعوا الغصن الأخضر يسقط من يدي. وتلوح صورة للقائد مع زعيمة الهند انديرا غاندي ثمّ مع بابا الفاتيكان. والبطل يقاتل، يتحدّى، يتصدّى للعدوان الإسرائيلي على بيروت. يقف في وجه الاجتياح ويصمد ورفاقه صموداً أسطوريّاً أمام آله حرب معبّأة بالكراهية وتمطر حقداً وموتاً. يد القائد تلوح على ظهر سفينة يونانيّة. أنا ذاهب إلى فلسطين. إلى القدس. وتأتي صورة للقائد في تونس الخضراء مع

* كاتب فلسطيني

أبي جهاد وأبي إياد والحكيم. وصور في القاهرة وعمّان والجزائر وفينا وروما. الرئيس يطير من عاصمة إلى عاصمة وتختفي طائرته.. لا أثر ولا خبر . وتصبب العرق البارد من جباه محبّيه.. وهم كثر. ويهتزّ العالم ويقلق أبناء شعبه وثوّار العالم.. وعرفات ينهض في الصّحراء الليبيّة يحمل الكلاشن ويحرس رفاقه من الذّئاب. ذئاب الصّحراء وذئاب البشر.. و.. و.. يقف شامخاً على العشب الأخضر في حديقة البيت الأبيض الذي طالما تآمر عليه وتمنّى زواله، ويوقّع اتفاقيّة أوسلو وفي ذهنه المتوقّد سلام الشجعان.

كنت في تموز/ يوليو ١٩٧٧، عضواً في وفد حزب "راكاح" الذي شارك في مهرجان الشّباب الدّيمقراطيّ العالميّ في هافانا عاصمة كوبا، بلد الثّورة، بلد فيدل كاسترو وجيفارا. وكان الرّئيس ياسر عرفات ضيف الشّرف للمهرجان. وما لُفظ إسمه أمام مجموعة من الشّبّان إلا صاحت: "فيفا".

وكان من المفروض أن يشارك وفدنا المؤلّف من خمسين شابّة وشابّاً، نصفهم من الشّبّان العرب الفلسطينيّين والنّصف الآخر من اليهود الإسرائيليّين، في مسيرة المهرجان الافتتاحيّة في شوارع هافانا.. وكنت مثل الآخرين أمنّي النفس بمشاهدة القائد عرفات على المنصّة الرّئيسيّة وأن أستمع إلى كلمته. ولكن، ولكن المسؤولين الكوبيّين والمسؤولين السّوفييت اتفقوا على أن يصل وفدنا متأخراً يوماً بل يومين عن موعد الافتتاح كي لا يشارك في المسيرة يتقدّمه العلم الإسرائيليّ، الأزرق والأبيض، كي لا يزعلوا بعض الوفود العربيّة !!

قضينا يومين جميلين بدلال وبنعمة في رومانيا ووصلنا متأخرين إلى هافانا.. وهكذا لم يحرج الكوبيّون والسّوفييت وفود العراق وسوريا وليبيا بل إنهم أزالوا في الوقت ذاته همّا ثقيلاً من على قلوب نصف أعضاء وفدنا وأراحونا من نقاش ساخن كان قد بدأ بين الرّفاق.. كيف نسير تحت العلم الإسرائيليّ، علم الاحتلال والاضطهاد والتّمييز؟!

خسرتُ، ورفاقي، يومئذٍ رؤية ياسر عرفات، ولكن الرّجل قدّم لنا بحضوره المهرجان خدمة جليلة فقد حلّ معضلة كانت قد تؤدي إلى انقسام الوفد.

واليوم، وبعد ستّة عشر عاماً، تصلني بواسطة د. أحمد الطيبي دعوة من صديقي الكاتب الرّوائي يحيى يخلف مدير الدّائرة الثقافية في منظمة التّحرير الفلسطينيّة لزيارة تونس.

وفي سيّارة الأجرة في الطّريق من مطار القاهرة الدّولي إلى فندق بيروت، سأَلنا السّائقُ المصريّ الشّاب الأسمر: من أين الشّبّان؟

كنت أجلس بجواره بينما يجلس صديقي ورفيقي في السّفر، الكاتب نبيه القاسم، في المقعد الخلفي.

أجبت: من مدينة القدس. وقد اخترت القدس لشهرتها وكي تقطع جهينة قول كلّ خطيب. فمن يسمع في القاهرة أو في مصر كلّها بقرية كابول أو قرية الرّامة، في حين أنّ ملايين العرب ، مسلمين ونصارى ، يعرفون ، على الأقلّ ، أنّ المسجد الأقصى وكنيسة القيامة من معالم القدس الحضاريّة والدّينيّة والتّاريخيّة.

قال السّائق المصري وكأنّه حلّ لغزاً: يهود!!

قلت: لا. نحن عربيان فلسطينيان. والتفتّ إلى صديقي نبيه القاسم وكأني أُقولُ له: هل أعجبك؟

قال السّائق: لا يمكن. لا يأتي من القدس سوى اليهود.

قلت بحزم: نحن عربيّان فلسطينيّان مسلمان. أنا اسمي محمد علي طه ورفيقي اسمه نبيه فريد القاسم.

قال باستخفاف: واليهود يسمّون أبناءهم محمد ونبيه وعلي وفريد.

التفتّ إلى نبيه وقلت بأسى: هذه البداية يا خواجة نبيه!!

وخلته يجيبني ببيت أبي الطّيب المتنبيّ الشّهير: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!!

ستة وأربعون عاماً.. بقينا وصمدنا في وطننا. كنّا كالأيتام على مائدة اللئام. حافظنا على لغتنا الجميلة. رسّخنا هويتنا. تغنّينا بعروبتنا. بنينا بيوتاً ومدارس وكنائس. كتبنا قصائد وقصصاً وروايات. غنّينا وعزفنا. تمسّكنا بالأرض وبالتّراب، بالصّبار وبالتّين وبالزّيتون. حمينا الأقصى والقيامة والجزّار والبشارة.

وبقينا كأننا مليون مستحيل. في النّقب واللدّ والرملة وحيفا وعكا والجليل.

حظينا في مطار تونس باستقبالٍ حارّ من عدد من الأدباء والشّعراء الفلسطينيّين المعروفين: الرّوائيّ والقاصّ يحيى يخلف والشّاعر غسّان زقطان والرّوائيّ والقاصّ توفيق فيّاض والشّاعر أحمد دحبور والكاتب حسن خضر والفنّان التّشكيليّ جمال الأفغانيّ. ونزلنا في فندق الدّبلوماسيّ. والتقينا في الأيّام التّالية عدداً من القادة الفلسطينيّين البارزين، مثل الإخوة ياسر عبد ربّه وصخر حبش وأحمد عبد الرّحمن وحكم بلعاوي ومرعي عبد الرّحمن وفوزي النّمر. وقدّمتُ (وكذلك أخي نبيه) محاضرتين في الدّائرة الثّقافيّة الفلسطينيّة وفي مقرّ اتحاد الأدباء الفلسطينّيين الذين استقبلونا بحميميّة.

كان هاجسي هو لقاء الرّئيس. ماذا نقول له؟ وماذا نسأله؟

قرأتُ قبل سنوات أنّ الرّئيس يحبّ الشّعر والشّعراء، وقد نال عدد من الشّعراء مكانة خاصّة عنده مثل محمود درويش ومعين بسيسو وشعراء من العالم العربيّ. ولكن هل يقرأ الرّئيس القصّة والرّواية؟ هل يملك القائد وقتاً لذلك؟ هل قرأ أعمال غسّان كنفاني مثلاً؟ هل قرأ جبرا إبراهيم جبرا؟ هل يعرفني؟

هذا القائد الثّائر المقاتل الشّجاع الذي عاد متخفّياً إلى الوطن بعد هزيمة حزيران/ يونيو والذي تنقّل بين عدد من مدن الضّفّة الغربيّة وأسّس خلايا المقاومة وقاتل في الكرامة وفي الجنوب اللبنانيّ وعلى سفح جبل الشّيخ وفي بيروت،

هذا الذي وضعت بندقيته قضيّة شعبنا في أهمّ المحافل الدّوليّة: في موسكو وبكّين ونيودلهي وباريس وروما،

هذا الذي يفتخر الشّبّان والصّبايا في الشّرق وفي الغرب باعتمار الكوفيّة الفلسطينيّة تقليداً لكوفيّته المشهورة،

ياسر عرفات، جيفارا، فيدل كاسترو، نيلسون مانديلا، الجنرال جياب أقمار مضيئة في تاريخ البشريّة وفي مسيرة الحريّة وفي محاربتها للظّلم والاستعمار،

هذا القائد الذي حافظ على منظمة التّحرير الفلسطينيّة وعلى القرار الفلسطينيّ المستقلّ، على الرّغم من المخابرات الأمريكيّةّ والبريطانيّة والفرنسيّة والإسرائيليّة والعربيّة، أيضاً، على الرّغم من مجاري العفن العربيّ والعالميّ التي تصبّ في عواصم سايكس بيكو.

عرفات البطل الذي صعد من نيران المجازر مثل المارد، والذي خرج من حصار بيروت الوحشيّ ومن السعير المنصبّ على المخيّمات، ونهض مثل عنقاء الرّماد من صحراء ليبيا، ووقف منتصباً شامخاً يقول بصوت قويّ جهوريّ: أنا ذاهب إلى فلسطين وسوف أصلّي في القدس.

قبل سفري إلى تونس بأسابيع تساءلت: ماذا أهديه؟ هل أهديه صورة تاريخيّة لمدينة عكّا وسورها وميناءها ومسجدها الجميل؟ لوحة لمدينة النّاصرة وسوقها القديم وبشارتها وعينها؟ صورة فيها حزن يافا ومسجد حسن بيك الصّامد الباقي، حتى بعد أن أحيط بفنادق بين فنادق البغاء والكازينوهات والخمّارات وبنات الهوى؟ جرّة صغيرة من فاخورة مسمار النّصراويّة مملوءة بتراب من سهل البطّوف أو مرج ابن عامر أو من وادي صفورية أو من حواكير حطّين أو من رمل النّقب؟ أأهديه مرتبانًا صغيرًا مملوءً بالزّعتر الميعاريّ المصنّع بالسمّاق والسّمسم وزيت الزّيتون؟

واخترتُ أخيراً غلاية قهوة نحاسيّة صفراء تجلس على صينيّة نحاس تحيطها مجموعة من الفناجين المذهّبة وطلبتُ من الحرفيّ أن ينقش عليها جملة جميلة اخترتها.

بعد ثلاثة أيّام، أخبرني صديقي أبو الهيثم بأنّنا سنقابل الأخ الرّئيس ومن المفضّل أن ألقي كلمة في حضرته. حاولتُ أن أكتب كلمة تليق بالموقف فلم أنجح ، فلا أعرف ماذا أقول له ولا أجيد مخاطبة الرّؤساء ولا أحبّ أن أمدح في حياتي رئيساً ولا أن أجامل قائداً ولا أريد أن يؤخذ عليّ يومًا أنّني تملّقتُ سلطانًا أو مسحتُ جوخًا لحاكم.

وصلنا إلى مقر الرّئاسة في العاصمة التّونسيّة البيضاء برفقة مجموعة من الأدباء والشّعراء، فاستقبلنا الرّئيس بحرارة وبترحاب وبعناق، وعندما صافحه الكاتب توفيق فيّاض قبض الرّئيس على ناصية توفيق وقال له بعتاب: جيت يا بطّاح!

حدّثني توفيق فيّاض البطّاح فيما بعد أنّ الرّئيس دعمه وساعده في أوقات حرجة عديدة، عند استشهاد زوجته، وعندما أرسله على حسابه الخاص للعلاج في ألمانيا، وعلى الرّغم من ذلك فقد وقّع توفيق على عريضة ضد اتفاق أوسلو وهذا ما أغضبه.

قدّمني الأخ يحيى مشكورًا بكلمة قصيرة طيّبة وأعطاني حق الكلام، فوقفتُ لأتكلّم إلا أنّ الرّئيس طلب منّي أن أتكلّم جالساً فأبيت. من عادتي أن أتكلّم في المناسبات وأنا واقف. هكذا تحدّثتُ مراراً في مظاهرات الأول من أيّار وفي مهرجانات يوم الأرض وفي محاضراتي العديدة في النّوادي وفي الجامعات وفي المدارس. فكيف في حضرة الرّئيس؟ لا يجوز إلا أن أتكلّم واقفاً. وخرجت الكلمات من قلبي منسابة على لساني صادقة دافئة. قلتُ إنّنا في بقائنا في وطننا كتبنا ملحمة الصّمود والبقاء وقاومنا التّهويد والعبرنة والأسرلة. حافظنا على لغتنا وتراثنا وأرضنا وبيوتنا. قاومنا الاضطهاد الإسرائيلي وصمدنا. قاومنا بألم وبمرارة تنكّر الأمّة العربيّة لنا ومحاولة تخويننا وصمدنا. حافظنا على عروبة الجليل والمثلّث والنّقب وعلى عروبة النّاصرة وشفاعمرو وأم الفحم وعلى عروبة مثلّث يوم الأرض. عرفنا الجوع والبطالة والحكم العسكريّ الظّالم والاضطهاد القوميّ ومحاولات التّرانسفير ومجزرة كفر قاسم وتمسّكنا بالتّراب كأننا مليون مستحيل. ولم أنسَ أن أتطرق إلى توقيعه على اتفاق أوسلو في حديقة البيت الأبيض فوصفت مشاعري وأنا أشاهده وهو يقف مع رفيقه أبي مازن بجانب بيل كلينتون وفي الجانب الثّاني يقف رابين وبيرس. الرّئيس الأمريكيّ وكلّ الرؤساء الأمريكيّين تآمروا على شعبنا العربيّ الفلسطينيّ وعلى ثورته البطلة ووصفوها بالإرهاب، وها هو كلينتون يدعوك إلى البيت الأبيض، وها هو رابين الذي قتل المئات من أبناء شعبنا وكسّر

عظام المتظاهرين والذي قال قبل أعوام قليلة إنّ هذه البلاد لا تتّسع لشعبين، وعلى أحدهما أن يبيد الآخر، ولن نكون المبادين، ها هو يصافح الرّئيس عرفات رمز الثّورة وقائد الشّعب الفلسطينيّ ويعترف بمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة ممثّلاً شرعيًّا لشعبنا. ونقلت له تحيّات الأهل في الوطن في الجليل والمثّلث والنّقب، وعبّرت له عن شوق الأرض العطشى للمطر وعن حنان الأمّ ولهفتها لعودة ابنها الغريب، وذكرتُ له أن الشّبّان يردّدون اسمه في المظاهرات وأن النّساء يغنّين له في الأعراس وفي زفّات العرائس والعرسان، وحدث عدّة مرّات أن اعتقلت الشّرطة نساء عديدات بسبب ذلك. وقلتُ له مازحاً: حفيدي محمّد، ابن الثّالثة، حينما يشاهد صورتك على شاشة التّلفاز يقول: ها هو جدّو عرفات. ويحاول أن يلمس الصّورة.

لاحظت ارتياحاً على وجهه من كلمتي وحينما أنهيت الكلام عانقني بحرارة، وأغدق كلمات المحبّة والتّقدير لأبناء شّعبنا الذين بقوا منغرسين في الوطن، وأكّد أنّنا أنجزنا المستحيل في بقائنا وصمودنا، وذكر أسماء عدد من القادة الفلسطينيين الذين دفعوا ثمنًا باهظًا من أجل العلاقة معنا مثل المناضل عبد الله الحورانيّ والكاتب فيصل الحورانيّ. وتبادلنا الحديث عن موقف الأهل في الدّاخل من اتفاق أوسلو وعن موقف الأحزاب الإسرائيليّة. وودّعناه وسرنا في القاعة متّجهين إلى بابها. وفجأة ارتفع صوته: يا محمّد ! يا محمّد ! قف .! ووقفتُ ووقفت مجموعة الأدباء ننظر إليه وهو يمشي نحوي مسرعًا. ارتبكتُ واحترتُ، فماذا يريد الرّجل؟ ماذا يريد القائد الكبير، ولمّا وصل على مقربة منّي قال: خذ هذه القبلة لحفيدك ! قلت: راح توصل. وشكراً لك.

فرحت بهذه اللفتة الإنسانيّة الذكيّة ولمّا تخطّينا الباب قلتُ ليحيى: هذه لفتة ذكيّة ورائعة وإنسانية. فقال أبو الهيثم: الرّجل عقله كمبيوتر، فلا تتفاجأ إذا التقيت به بعد سنوات وسألك عن حفيدك. وعندما جلسنا نشرب القهوة في مقهى قريب، قال يحيى مخاطباً جماعة الأدباء والشّعراء: هل انتبهتم، عندما كان أبو علي يتكلّم كان الرّئيس مسرورًا، وكانت عيناه تنظران إليه ثمّ تنتقلان إلينا وكأنّه يقول لنا: شايفين يا.... هل سمعتم ما يقوله؟

ركبنا الطّائرة التّونسيّة عائدين إلى مطار القاهرة في سفرة ترانزيت إلى مطار اللّد، فوجدنا رجال الأمن الإسرائيليّ كالعادة في انتظارنا. قال لي أحد رجال الأمن بلطف غير مسبوق: حقيبتك هذه وصلت من تونس وفي طائرة تونسيّة ونقلها عمّال مصريّون إلى هنا فأرجوك أن تفتحها لنفحصها معاً.

يا الله منذ متى هذا اللطف؟!

وبعد تفتيش الحقيبة، سألني رجل الأمن: مع من التقيت في تونس؟ أجبته: مع رأس الهرم. مع الرّئيس عرفات وآخرين.

كان رّجل الأمن قد فتح حقيبة يدي وشاهد الصّور التّذكاريّة مع الرّئيس ومع عدد من القادة الفلسطينيّين وعدد من الأدباء والشّعراء والمثقفين المناضلين. ناول رجل الأمن زميلته الصّور فحدّقت بها مدهوشة وأعادتها إليّ ثمّ اعتذر لي ولنبيه على الإزعاج. كان الأمر مفاجئًا. هل تغيّرت الدّنيا؟

عندما كنتُ أعود إلى الوطن وأصل المطار تبدأ عمليّة الإهانة والتّعذيب، إبتداء من الانتظار الطّويل المملّ إلى تفتيش الحاجات والهدايا وفتح زجاجات العطر وأسطوانة معجون الأسنان وعصرها ووابل من الأسئلة التّافهة.

سافرتُ للمرة الأولى إلى خارج البلاد في تموز/ يوليو ١٩٧٨. وقضيتُ شهراً كاملاً في رومانيا وكوبا والاتحاد السّوفييتي. وعدتُ إلى الوطن مشتاقاً للقاء العائلة التي لم أتّصل بها ولم تتّصل بي طيلة أيّام رحلتي، لأنّ قريتي، بفضل "المساواة التّامّة" بين مواطني دولة إسرائيل، كانت خالية نظيفة من أيّ تلفون عموميّ أو خصوصيّ. وما أن هبطت الطّائرة في مطار اللّد الذي عبرنوا اسمه فصار مطار بن غوريون وإذ بضابط شرطة يقف على بابها متجهّمًا وينادي إسمي ثمّ يصادر جواز سفري ويقودني إلى سيّارة عسكريّة. وعندما وصلنا إلى قاعة المسافرين العائدين تأبّط ذراعيّ شابّان قويّان من رجال الأمن وقاداني إلى قاعة استقبال الأمتعة انتظارًا لحقيبتي. سألتهما: هل أنا معتقل وهل معهما أمر قضائيّ باعتقالي، فلم يجيبا بل نظرا إليّ باستعلاء وكأنّهما يقولان: عربوش ويسألنا.!!

وكان المستقبلون والعائدون في قاعة المطار يقفون للحظات ويحدّقون بي، ولعلّهم كانوا يظنّون أنّ أمن المطار ألقى القبض على إرهابيّ خطير أو على تاجر مخدّرات أو على إنسان هارب من العدالة.

كانت زوجتي وأولادي ينتظرونني في خارج القاعة على أحرّ من الجمر، ولا بدّ من أنّهم قد قلقوا عليّ، وفيما أنا واقف ورجلا الأمن يتأبّطان ذراعيّ، وصل مصادفة صديقي الشّاعر النّائب توفيق زيّاد الذي جاء لاستقبال ابنته وهيبة العائدة من المخيّم الصّيفيّ لأبناء الكادحين في روسيا. سألني ما الأمر؟ فشرحتُ له ما حدث، فسألهما أيضاً: هل هو معتقل؟ هل معكما أمر اعتقال من قاضٍ؟ فلم يجيبا. فقال لي توفيق: اسمع. سأقبض على تلابيب هذا الضّابط وأدفعه بقوّة، وما عليك إلا أن تفعل الأمر ذاته مع الضّابط الآخر. قلتُ إنّهما شابّان قويّان.

فردّ: لا يهمّ، افعل ما أقوله لك. وقبض توفيق على تلابيب الضّابط ودفعه، وفعلت الشيء ذاته، فعاد الضّابطان وقبضا على ذراعيّ، فقال توفيق: مرّة ثانية، وصرخ بأعلى صوته: يا فاشيست. وتوافد رجال ونساء عديدون وتجمهروا حولنا، ودارت "مدافشة" بالأيدي بيننا وبين رجليّ الأمن وإذ بالرّجل الكبير يحمل جواز سفري بيده ويهرول نحوي ويقول لي : خذ جواز سفرك واخرج من هنا! تناولتُ حقيبتي وخرجتُ من المطار مسرعاً كما طلب منّي توفيق.

كان هذا التّصرف اللا إنسانيّ في مطار اللّد يتكرّر في كلّ سفرة، وبلغ أحياناً حدّ التّعرية الجسديّة. فماذا جرى وماذا صار؟ هل تغيّرت الدّنيا بعد اتفاق أوسلو؟ فسّر لي رفيقي وصديقي إميل حبيبي هذا التّصرف: بعد أنّ أصبحت كاتبًا معروفًا صاروا يخافون من الفضيحة.

منذ متى تخشى السّلطة الأدباء يا أبا سلام؟ ومنذ متى تعمل حسابًا للفضائح وفي تاريخها فضيحة إثر فضيحة؟

-ب-

عمل الإعلام الإسرائيليّ وقادة إسرائيل منذ حكومة غولدا مئير فإسحاق رابين فمناحم بيغن فإسحاق شمير فشمعون بيرس على "شيطنة" ياسر عرفات وتصويره بـ "عدو الشّعب" و "الرجل ذي الشّعرات على وجهه" و "النّازيّ" و "المجرم"، وكان ذكر اسمه أمام الإسرائيليين يثير غضبًا وسخطًا.

دعيتُ في العام ١٩٧٤ إلى لقاء مع أعضاء كيبوتس جيشر في غور الأردن، وكانت آثار حرب أكتوبر القاسية ما زالت قويّة ومؤلمة على المجتمع الإسرائيليّ. اصطحبني صحافيّ إسرائيليّ من إذاعة إسرائيل العبريّة ليجري اللقاء معي، وحينما وصلنا إلى الكيبوتس استقبلنا رجل مسنّ ودعانا لشرب القهوة في بيته، ولمّا دخلنا البيت استقبلتنا زوجته وصافحتنا، فنظر الرجل إليّ وسألني: من تشبه هذه السّيّدة؟ حدّقتُ في وجهها واحترت بماذا أجيب. لماذا هذا الإحراج؟ وماذا لو قلت أنّها تشبه فلانًا وأثار جوابي تداعيات سلبيّة كما حدث لصديقي جمال طربيه، رئيس بلديّة سخنين، الذي كان مولعًا بالفراسة فما أن يقابل إنسانًا غريبًا حتّى يقول له: لا تخبرني من أنت، أنا سوف أعرف لوحدي، فأنت من بلدة كذا ومن عائلة كذا وابن فلان. وكان ينجح في فراسته. وحدث في يوم ما أن دخل إلى مكتبه في البلديّة رجل وسيّدة ويرافقهما طفل فقال لهما جمال كعادته: مهلاً سأتعرّف عليكما قبل أن تتكلما. أنتما من بلدة كذا. فقال الرجل : نعم. ونظر جمال إلى الرّجل وقال له: أنت من عائلة كذا. فقال: نعم وأضاف أنت ابن فلان الفلانيّ. فضحك الرّجل وقال والله صدقت. ثمّ نظر إلى المرأة وقال لها: أنتِ من عائلة كذا

وأخت فلان وابنة فلان. فقالت المرأة صدقت. نظر جمال إلى الطّفل وقال: هذا الطّفل ابن فلان الفلانيّ. سبحان الخالق النّاطق. وذكر اسم رجل معروف من تلك البلدة، فاصّفرّ وجه الرّجل، وكادت المرأة تسقط على الأرض. ومرّت لحظات صعبة وحرجة. ونظر الرّجل إلى المرأة وقال لها: هل سمعتِ يا خائنة؟ روحي. أنتِ طالق.

قلتُ لمضيفنا: أظنّ أنّها "....." فتساءل المضيف: من تشبه من الشّعراء العبريّين الذين تعرفهم؟ أجبتُ: حاييم غوري. قال: هي أخته. وحاييم غوري هو شاعر وكاتب الهجناه الذي شارك مع يغئال ألون في حرب ١٩٤٨. شربنا القهوة، وتناولنا الكعك، وذهبنا معًا إلى قاعة الطّعام في الكيبوتس التي كانت تغصّ بالرّجال وبالنّساء. وكان اللقاء ساخنًا ومثيرًا. وكانت الأسئلة محرجة وصعبة. وكنت شابّاً متحمّساً قليل التّجربة. وقف أحد أعضاء الكيبوتس وقال: نحن شعب يرغب بأن يعيش بسلام وهدوء. فمع من نتفاوض؟ مع الملك حسين أم مع أنور السّادات أم مع حافظ الأسد؟

أجبتُ بدون تردّد: مع ياسر عرفات.

وضجّت القاعة بالصّراخ وبالاحتجاج. واندفع رجل نحو المنصّة حيث أجلس أنا والصحافي وحاول أن يعتدي عليّ جسديًّا لولا أن صدّه بعضهم. وقف الذي استضافني وقال: هذا الرّجل فقد ابنه في حادث مع مخرّبي "فتح" وعليك أن تتفهّم شعوره.

أتفهّم شعوره؟ أنا ضد القتل وضد العنف، ولكن كم قتلوا هم من أبناء شعبي؟! هناك قادة سياسيّون وأعضاء كنيست يفتخرون بأنّهم قتلوا عربًا ويتباهون وهم يصرحون في وسائل الإعلام وفي النّدوات: من قتل عربيًا أكثر منّي؟!

كنت نقيبًا للمعلمين عن الجبهة الدّيمقراطيّة للسّلام والمساواة. وفي اجتماع لمركز النّقابة في العام ١٩٨٢ في مدينة تل أبيب، وبينما كنت ألقي كلمتي من على المنصّة وأنتقد سياسة حكومة إسرائيل، قاطعني ممثل لحزب الليكود فقلتُ له: اخرس يا كهانا ! فردّ عليّ: اخرس يا عرفات! وتابعتُ خطابي وهو يقاطعني ويصرخ: يا عرفات يا عرفات، وأنا أبتسم. نظرتُ إلى النّقابيّين في القاعة، فشاهدتُ رفيقي النّقابيّ عبد المنّان شبيطة يضحك ملء وجهه، وحين ترجّلت عن المنصّة اقترب عبد المنّان منّي وقال: هذا الحمار لا يعرف بأنّه يمدحك، ولا يدري كم أنت مسرور بهذا الوصف، ولا يريد أن يفهم بأنّك تحثّه على ترديده؟

أليس فخرًا وعزّة وكرامة أن ينعتك عدوّ أو صديق بـ "عرفات"؟ وهل هناك قيمة نضاليّة أو قيمة إنسانيّة أعظم من ذلك؟!

-و-

وصل الرّئيس إلى غزّة في الفاتح من تموز/يوليو ١٩٩٤، واستقبله أبناء وبنات شعبنا الغزيّون بحرارة وحفاوة فاقت جميع التّوقعات وتسامت على كلّ وصف. شكّلتُ يومئذٍ وفدًا من اتحاد الكتّاب العرب من الإخوة نبيه القاسم وفاروق مواسي وشكيب جهشان ونزيه خير لتهنئة الرّئيس بالعودة إلى الوطن. وصلنا إلى فندق فلسطين فأخبرْنا رئيس الحرس، الذي تعرّف إليّ من لقاء تونس، بأنّنا نرغب في لقاء الرّئيس. رحّب الرجل بنا ودعانا للانتظار ريثما يعود الرّئيس من لقائه مع مجموعة من جرحى الانتفاضة المقعدين. جلسنا في غرفة جانبيّة، وفي هذه الأثناء وصل وفد كبير من أهلنا في الشّمال وفي الجنوب برئاسة النّائب عبد الوهّاب دروازة لتهنئة الرّئيس بالعودة الى الوطن، وجلسوا على المقاعد الأماميّة في القاعة. وصل السّيّد الرّئيس وكانت ترافقه السّيّدة انتصار الوزير "أم جهاد" فصافحناه وعانقناه وهنأناه بالعودة، واعتلى المنصّة. وجلس الأخ دراوشة بجانبه، وأمّا نحن الأدباء فجلسنا في الصّفّ الأخير.

دعاني الرّئيس لأجلس على المنصّة فشكرته واعتذرت، وقلتُ إنّي أفضّل أن أبقى مع رفاقي الأدباء. ألقى النّائب دراوشة كلمة، وكان يتحدّث بمكبّر صوت يدويّ، وفي نهاية الكلمة أعلن أنّ الكلمة الآن للكاتب محمد علي طه، ودعاني إلى المنصّة فشكرته، وطلبتُ أن ينقلوا مكبّر الصّوت إليّ حيث أجلس. كنتُ حذرًا من الوقوف أو الجلوس بجواره حتى لا يُقال إنّني جزء من وفده. بعد أن ألقيت كلمتي، اصطحبني الرّئيس ونادى أمّ جهاد وسألها: من هو الشّاعر الذي احترمته ودلّلته أكثر من الجميع يا أم جهاد؟ فأجابت: محمود درويش. فنظر إليّ وقال: أعرف أنّه صديقك. لقد فعلت له كلّ ما يريده، فلا يصحّ أن يبقى في باريس ولا ينضم إليّ في هذه الأيّام. وزارة الثقافة تنتظره وعليك أن تقنعه.

قلتُ: شكرًا على هذه الثقة يا سيدي الرّئيس، وسأحاول ما استطعت.

حمّلني السّيّد الرّئيس مهمّة صعبة جدّاً. سأحاول على الرّغم من أنّني أعرف طباع محمود درويش.

-ع-

قرأت في الصّحف في آب/ أغسطس ١٩٩٤ عن الأزمة الاقتصاديّة في قطاع غزّة، وعن النّقص الحاد في القرطاسيّة لطلاب المدارس الذين سيدخلونها في الفاتح من أيلول/ سبتمبر فجمعنا (اتحاد الكتاب العرب، ومؤسّسة الأسوار، وصحيفة كل العرب) حقائب مدرسيّة ودفاتر

وأقلاما، وملأنا شاحنة كبيرة. وتوجّهنا إلى غزة؛ ورافقني رجل أعمال معروف واستاذ جامعيّ والسّيدة حنان حجازي. انشغلت الأخت حنان في باب مقرّ الرّئيس في فندق فلسطين بحديث مع شخص ما ولم ننتبه لذلك، فدخلنا إلى مكتب الرّئيس الذي استقبلنا عند الباب مباشرة، وعانقنا وقبّلنا، وهنا دخلت السّيدة حنان، وبعد أن صافحها وعانقها التفت اليّ وقال بدماثته وذكائه: كيف تدخل يا محمد قبل حنان؟ أين احترامك للمرأة يا تقدميّ يا يساريّ؟ ألا تعرف أنّ المرأة الفلسطينيّة شاركتنا في الثّورة في شتّى المجالات؟

قلت: يا سيدي الرّئيس، أعلم أنّك ستعانقنا وتقبّلنا واحدا واحدا، فاخترت أن تبقى السيّدة حنان، المرأة الجميلة، في النّهاية، كي تبقى الحلاوة على فمك. فضحك وهزّ رأسه وشعّ الذّكاء من عينيه كأنّه يقول لي: طلعت منها !

وعندما جلسنا، قال إنّه متأثر جدّا من عملنا الوطنيّ الإنسانيّ الذي يدلّ على ترابط أبناء الشّعب الواحد. ودار الحديث حول ما يمكن أن نقدّمه لأهلنا وللسّلطة الوطنيّة. وقلت: يا سيّدي الرّئيس سوف يعدّ الخبراء الفلسطينيون مناهج دراسيّة لتلاميذ شعبنا ولا يحقّ لأحد أن يتدخل في هذه المناهج العربيّة الفلسطينيّة، خصوصاً مواضيع اللغة العربيّة والتّاريخ والدّين، ولكنّي أعتقد أنّنا نستطيع أن نساعد في مناهج الرّياضيّات والبيولوجيا والكيمياء والفيزياء فعندنا في الدّاخل مجموعة من العلماء العرب ومن الخبراء ومن المختصّين الذين يعملون في الجامعات وفي معهد وايزمان وفي المناهج. فما رأي سيادتكم في أن يساهموا في إعداد مناهج علميّة حديثة راقيّة تتلاءم مع العصر؟

رحّب الرّئيس بالاقتراح وطلب من الصّديق يحيى يخلف "أبو الهيثم" الذي كان حاضرا اللقاء أن يتابع الموضوع. وبعد عودتي الى بيتي، باشرت بالاتصال مع مجموعة العلماء والخبراء الذين رحبّوا بذلك وأكدّوا أنّهم سيعملون تطوّعا من أجل أبناء شعبهم. ويؤسفني أنّ الأمر لم يتحقق.

وفي أثناء اللقاء مع السّيد الرّئيس، تحدّث جميع المشاركين وكان هو يصغي باهتمام لأقوالهم. وأمّا الأستاذ الجامعيّ فقد تكلّم مثل مدرّس أو واعظ، مما أحرجني، وهنا تناول الرّئيس قلمه من جيبه وباشر بالتّوقيع على أوراق كانت أمامه.

حينما انتهى اللقاء استأذنّاه بالانصراف، فأصرّ الرّئيس على أنّ نتناول طعام الغداء معه، فاعتذرت، فقال بحدّة: هل صدّقت الإسرائيليين يا محمد حين زعموا أنني لا أملك ثمن الطّعام ولا أستطيع أن أغدّي ضيوفي؟

أجبت: يا سيدّي الرّئيس هذه فرصة نادرة لي لأتناول الغداء مع رئيس.

وضع الشّبّان شرشفا بلاستيكيّا على الطّاولة التي كنّا نتحلّق حولها ووضعوا الطّعام من السمك واللحوم والأرزّ والخضار. وكنّا جائعين فأكلنا بشهيّة. ولا أنسى أنّه كان يتناول قطع اللحم أو السّمك ويوزّعها في صحوننا .

في أثناء عودتنا، قال الأستاذ الجامعيّ: لا يليق أن تتحوّل طاولة الرّئيس إلى مائدة. أدركت أنّ زميلنا متضايق، فقلت بهدوء: الرّئيس ثائر ومقاتل، نام على التّراب وعلى البلان وفي سفوح الجبال وفي الكهوف. وأنت يا زميلي الأستاذ لست في البيت الأبيض أوفي قصر الاليزيه أو قصر القبّة. أنت في غزة، الثّورة والفقراء واللاجئين، في مكتب سلطة وطنيّة ما زالت في المخاض.

-م-

اعتدت أن أزوره سنويّا عدّة مرات منذ انتقل مكتب الرّئاسة إلى مدينة رام الله، العاصمة المؤقتة، في الطّريق إلى القدس. لم أحتج يوما إلى وسيط للقاء معه. كان يرحّب بي ويصرّ على أن أتناول الغداء، سواء معه وحده أو مع ضيوفه. كان من عادته أن يشرب الحساء ويأكل الخضار المسلوقة. وكان يمدّ راحته ويتناول بأنامله بعض المكسّرات، مثل اللوز والجوز والصنوبر، ويضعها في صحن الحساء الذي أتناوله، ثم يتناول قطعة من لحم الخروف ويضعها في طبقي. كان يتصرّف تصرّف رجل عربيّ مضياف. وكنت أتحدّث معه بأدب محاولا أن لا أتخطّى حدود اللياقة، فالرّجل رئيس لشعبنا، ورئيس دولة، وقائد ثورة، ومناضل عريق، واسم عالميّ في الثّورات العالميّة والسياسة، وله هيبة كبيرة جدّا ومهابة لا مثيل لها، والأهمّ من ذلك أنّه متوقّد الذّكاء وسريع البديهة وسريع الخاطر.

-ا-

اختار الرئيس عرفات درب السّلام عن قناعة وليس عن خدعة كما يزعم بعض الاسرائيليّين، وكان يعتقد أنّ واجبنا، نحن المواطنين العرب الفلسطينيين في إسرائيل، أنّ نطمئن الشّعب الإسرائيليّ بصدق نوايا القيادة الفلسطينيّة بالسّلام ورغبة الشّعب الفلسطينيّ فيه، فقد كان يدرك عقدة الخوف التي يعيشها الإسرائيليون. " عليكم يا محمد أن تطمئنوهم. هذه رسالتكم الى المجتمع الإسرائيلي " هكذا قال لي أكثر من مرّة. وكان يرى في إسحاق رابين شريكا في عمليّة السّلام.

-ر-

زرت دمشق بعد فوز نتنياهو في انتخبات ١٩٩٦ في وفد برئاسة السّيد إبراهيم نمر حسين، رئيس لجنة المتابعة لشؤون المواطنين العرب، ضمّ عددا من أعضاء الكنيست ومن رؤساء السّلطات البلديّة والمحليّة ومن الأدباء. وفي لقائنا بالسيّد حافظ الأسد، رئيس الجمهوريّة العربيّة السوريّة، في قصر الرئاسة وبحضور وزير الخارجيّة السّيّد فاروق الشّرع، تحدّث عدد من الأخوة أعضاء الوفد وأثاروا قضايا المواطنين العرب في إسرائيل.

لم يكن مخطّطا أن أتحدّث في اللقاء ولكن، ولا أدري السّبب، فوجئت بصديقي الشّاعر سميح القاسم الذي كان يدير اللقاء يدعوني للكلام. وبعد مقدّمة قصيرة، تطرّقت فيها إلى ما قدّمه الشّعب العربيّ السّوريّ للثّقافة العربيّة والإنسانية والى مواقف سوريا القوميّة عبر التاريخ قلت: يا فخامة الرّئيس، ذكرتَ أنّك قطعت شوطا كبيرا مع رابين في عمليّة السّلام ولم تبق سوى أمور صغيرة، وذكرتَ أيضا أنّ شمعون بيرس طلب من فخامتكم الانتظار إلى ما بعد الانتخابات البرلمانيّة الإسرائيلية من أجل إنجاز الاتفاق، ولكنّ الانتخابات أفرزت فوز نتنياهو. وقلت يا سيدّي: "نتنياهو ليس جادّا في عمليّة السّلام " وهذا الرأي ينطبق على الواقع الفلسطينيّ أيضا. وأعرف ويعرف الجميع أنّ هناك قطيعة مع الرّئيس ياسر عرفات بعد اتفاق أوسلو، وأما اليوم فهناك واقع جديد. هذه القطيعة تضرّ بالجانب السّوريّ وبالجانب الفلسطينيّ. فلماذا لا تتم المصالحّة وتتعاونان معا؟

وعندما انتهت الأسئلة وباشر الرّئيس الأسد بالإجابة خصّص وقتا طويلا للإجابة على سؤالي، فشرح بإسهاب علاقته مع أبي عمّار والثورة الفلسطينيّة. وكان يلتفت بين حين وآخر إلى فاروق الشّرع ويسأله: أليس كذلك يا فاروق؟ ويؤكّد الشّرع صحّة كلام الرّئيس. وذكر الرئيس أنّ عرفات طلب الوحدة مع سورية، وأنّه هو وافق على الاقتراح وطلب من الشّرع أنّ يجلس مع أبي عمّار ويصوغا مسودّة الاتفاق، وأما عندما جاء أبو عمّار الى دمشق بعد أوسلو فقد قلت له: لا أوافق على هذه الخطوة. الله معك.

وهنا قاطعه النّائب عبد الوهّاب درواشة بلهجة قرويّة فلسطينيّة: معليش يا فخامة الرّئيس. الماعون الكبير يتسّع للماعون الصّغير. فردّ الأسد بسرعة: لا يوجد ماعون في العالم يتسّع لأبي عمّار!

وضحكنا جميعا. والحقيقة أنّي اعتبرت ردّ الرّئيس حافظ الأسد تقديرا كبيرا لأبي عمّار. عدنا إلى الوطن وزرت الرّئيس بعد شهر تقريبا في مكتبه. وبعد أن سمعت منه كلاما هامّا عن المفاوضات في زمن نتنياهو، سألني: ماذا قال حافظ الأسد عني؟ فرويت له ما جرى وما قاله

الأسد، فضحك وقال: حافظ الأسد يعرف ذلك جيدًا، ولكنّ لماذا لم تخبرني بما قاله بعد عودتك، هل كان عليّ أن أسمع ذلك من الآخرين؟ قلت: الرّئيس الأسد مدحك، ولا أرى فائدة من نقل هذا الكلام لحضرتك.

تناول الرئيس قلمه من جيب بذلته العسكريّة التي اعتاد أن يرتديها دائمًا، وباشر بالتّوقيع على الأوراق. شعرت بأن عليّ أن أغادر المكتب فاستأذنته فقال: اجلس. ورفع رأسه عن الأوراق وسألني: ما أخبار حفيدك؟

- يحبّك كثيرا .

-سلّم عليه وقبّله عنّي.

-ع-

كرّمني الأخ الرّئيس مشكورا عندما منحني وسام القدس للثّقافة والفنون في ١-١-١٩٩٧، وقد قلّدني ايّاه بالنّيابة عنه الأخ ياسر عبد ربّه، وزير الثّقافة، في احتفال جميل في قاعة خليل السّكاكينيّ في مدينة رام الله، حضره جمهور مميز من الوزراء والكتّاب والأدباء وتحدّث فيه الأخوة المناضلون: الأستاذ ياسر عبد ربّه، والكاتب الرّوائيّ يحيى يخلف، وكيل وزارة الثّقافة، والكاتب الرّوائيّ عزّت الغزّاويّ، رئيس اتحاد الكتّاب والصحافيّين الفلسطينيّين، والكاتب الرّوائيّ محمود شقير، والكاتب النّاقد د. نبيه القاسم. كما ألقيت كلمة شكر حارّة للرئيس على هذه المكرمّة الكبيرة التي أعتزّ بها. ولا يخفى على أحد منا أنّ الفاتح من كانون الثّاني/ يناير هو تاريخ انطلاقة الثّورة الفلسطينيّة، التّي فجّرها القائد الرّمز ورفاق دربه وقادها بشجاعة وذكاء في القدس وفي قطاع غزة وفي الأردن وفي سورية وفي لبنان وفي بيروت وفي "فتح لاند" وفي الجنوب اللبنانيّ وفي أماكن وعواصم عديدة في العالم وفي المحافل الدّوليّة، واستطاع أنّ يكسب تقدير واحترام قادة وشعوب العالم، وأن يضع قضيّة شعبنا على خريطة العالم، فلا بدّ من تقرير المصير وإقامة الدّولة الفلسطينيّة وعاصمتها القدس زهرة المدائن .

-ر-

حاصرت القوّات الإسرائيلية الرّئيس عرفات في المقاطعة وهدمت قسما منها وبقي صامدا صامدا، إما النّصر وإمّا الشّهادة.

زرته عدّة مرّات في أثناء الحصار. زرته مع وفد من الأدباء والشّعراء، وزرته وحدي. كان الحصار لا يطاق ولا يحتمل. الرّئيس الزّعيم الصّقر الذي كان يطير من دولة إلى دولة ومن

عاصمة إلى عاصمة، يطير في سماء آسيا وفي سماء أوروبا وفوق إفريقيا وفوق أمريكا اللاتينيّة لا يستطيع أنّ يغادر غرفته، يمنعون عنه الطّعام والماء أيّاما والعالم صامت، والملوك والرّؤساء العرب صامتون، لا يحتجّون ولا يتضامنون معه، ولا يتّصلون به لأنهم لا يريدون أنّ يغضبوا السّيد الأمريكيّ.

كنت أزوره في أحد أيام الحصّار فرنّ هاتفه الجوّال. أهلا أهلا يا أخي الرّئيس. كان على الخطّ من الجهة الأخرى الرّئيس اليمنيّ علي عبد الله الصالح. تبادل الرّئيسان المجاملات الطيّبة. اقترح الرّئيس اليمنيّ على أبي عمّار أنّ يتحدّى شارون وإسرائيل ويخرج في ضحى يوم الجمعة القادم من المقاطعة ويسير في شوارع رام الله، ووعد الرّئيس اليمنيّ أنّ يسير والقادة العرب في شوارع عواصمهم تضامنا مع الرّئيس عرفات. شكر السّيد الرّئيس مهاتفه على اقتراحه " الثّوريّ " وأغلق الخط. وقال: هذا اقتراح الأمريكان. يريدون التّخلص منّي. هذا ما قالوه له .

-ف-

وفي مساء يوم رمضانيّ من العام ٢٠٠١، تناولت طعام الإفطار وجلست أدخّن نرجيلتي وإذا بهاتفي الجوّال يرنّ .

- كيف حالك يا محمد؟

الصوت مألوف جدّا جدّا.

- الحمد لله.

- لماذا لا تأتي لتتناول طعام الإفطار معي؟

هذا صوت الرّئيس. هل يعقل؟ من أنا حتّى يهاتفني؟ ومن أنا حتى يلومني لأنني لا أتناول الإفطار معه؟! لا أصدق!.

-عفوا سيدّي، من المتكلم؟

ظننت أنّ صديقا من أصدقائي يريد أن يمازحني بمقلب .

- أنا ياسر عرفات يا محمد .

- أرجوك ألا تمزح. من أنت يا أخي؟

- أنا ولله ياسر عرفات يا محمد.

وكاد الهاتف الجوّال أن يسقط من يدي.

صديقاك محمد بركة وأحمد طيبي يفطران معي، فلماذا لم تأت معهما؟

بدأت أعتذر وأعتذر وأعتذر. وداهمني العرق البارد. وحمدت الله تعالى لأنني لم أخطئ في الكلام.

أتصل بي د. أحمد الطيبي في نفس اليوم وقال لي لائما: أنت الوحيد في العالم الذي يقول لعرفات من أنت.

- قلت كان الأجدر بكما ألا توقعاني في هذا المطّب. والحمد لله، خرجت سالما .

-١-

أبا عمّار !

ترقد في عرينك بين التّراب المقدّس الذي أحببته ونذرت عمرك العريض وفكرك الثّوريّ الثّاقب له، وبين الورد الذي عشقك واستشهد ليضمك.

هي استراحة المحارب .

يوما أو بعض يوم.

يا أسطورة خسرتها الإلياذة...

عين على صخرة حطّين وعين على صخرة الأقصى .

الأولى تقول لك ثلاثا مثل عادتك: أنا ظهرك...

والثانيّة تنادي: يرونني بعيدة ويراني قريبة.

لا بد أن تقوم كما قام جدك الثّائر الفلسطينيّ الأول وتملأ سماء القدس نورا وطيبا.

نحن على موعد في السبت القادم...القادم.

تقبض على عنان ناقة أبيك ابن الخطّاب وتمشي، وتمشي الملايين من شعب الجبّارين وراءك وتكّبر وتنشد:

" على القدس رايحين "

وصدى الصّوت يعبق قي أودية الخليل وحواري قصبة نابلس وأزقّة جباليا.

يا عمّار بن ياسر...

يا أبا عمّار ياسر...

تقتلك الفئة الباغيّة.

قالها الحبيب قبل أربعة عشر قرنا.

وملوك الطّوائف ورؤساء قبائل الرّدّة توافدوا إلى قاهرة المعزّ ليتأكدوا من موتك عسى أن يرتاحوا.

ذرفوا دموع التّماسيح أمام الكاميرات وصلّوا عليك بالعبريّة التلموديّة ثم ركبوا إبلهم العصريّة وعادوا إلى عواصمهم يغسلون أيديهم ويرددون:

نحن أبرياء من دم هذا الصّدّيق...

انهض يا فينيقنا كي يتساقطوا صرعى كما كانوا أذّلاء في حياتك وحضورك.

انهض أبا عمّار كما نهضت من قبل في صحراء العرب، العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب الغاربة...

تموت يا سيد فلسطيّن في أرقى بقعة في أوروبا.

ويصّلى عليك في أطهر بقعة في إفريقيا.

وتدفن في أطهر بقعة في آسيا.

أهي الأقدار أم عالميّتك؟

اسمك في كل مكان. يبكيك الصّينيّ والفيتناميّ والكوبيّ والفرنسيّ والأفريقيّ...

ملأت الدّنيا وأشغلت الناس في مماتك كما ملأتها وأشغلتها في حياتك...

أيّها الميّت الحيّ..

أرعب العدو موتك كما أرعبتهم حياتك.

وأخافهم تابوتك كما أخافتهم بندقيّتك.

رقص الأعداء الأنذال في شوارع القدس وشربوا كؤوس النّبيذ فرحا وابتهاجا بموتك فبرهنوا على بهيميّتهم من جديد. وردّدنا على لسانك قول السّيد المسيح: اغفر لهم يا أبتاه إنّهم ضالّون. إنهم ضالّون. إنهم ضالّون. ملا الحقد قلوبهم وأجوافهم وفاض على الأرض نتانة.

يا سيد الصّمود،

من أين هذه الأعصاب فوق البشريّة؟

يحاصرونك في غرفة ونصف الغرفة، تقصف الطّائرات عرينك. تقذف الدّبّابات حممها على حصنك.. ويصلون إلى مرمى حجر من غرفتك..

فتطل من الشّباك مشرعا مسدسك السّرمديّ، رفيق عمرك، وتصرخ: هبّت رياح الجنّة. شهيدا شهيدا شهيدا..

فيتراجعون..

هبّت رياح الجنّة وتضوّعت في أرجاء المقاطعة بين أكياس الرّمل وبين الدّمار.

شهيدا شهيدا شهيدا..

وتزرع الصّمود في نفوس الشّعب. شعب الجبّارين.

في قلوب الرّجال.

في نفوس النّساء.

في أرواح الأطفال.

أربع سنوات من إبادة البشر والشّجر والحجر وما رفع واحد من هذا الشّعب الأسطوري خرقة بيضاء.

وهل يستسلم أحد أبوه ياسر عرفات؟

هم أبناؤك وبناتك .

شيخ من رفح في الثّمانين من عمره يبكيك ويبلّل الدّمع شعر لحيته البيضاء ويقول: ليش تركتنا يا بوي؟

وطفل من مخيم عسكر ينتحب بلوعة: وين رايح يابا؟

وزوجة أسير تندب: مين لأولادي بعدك؟

وأنت...

انت يا سيد الصمود، ويا سيد الشّهداء، ويا أبا الجميع، تطلّ من التّابوت المحمول على سواعد الآلاف في ساحة العرين وتقول بهدوء: يا أبنائي، لقد تركت لكم إرثا أن تمسكتم به فلن تضلوا ابدأ.. ان تمسكتم به فلن تضلوا ابدا.

لن نضلّ.

لن نضلّ.... لن نضلّ.

وروحك الطاهرة ترفّ بيننا وحولنا وفوقنا.

-ت-

لم أعلّق على جدار غرفة من غرف بيتي صورة لأي زعيم. لا صورة لينين، ولا صورة لكاسترو، ولا صورة لجيفارا ، ولا صورة لعبد النّاصر، ولا صورة لمنديلا، ولا ....

الصورة الوحيدة الكبيرة في صدر ديوان بيتي هي صورة أبي عمّار ياسر عرفات .

سنبقى نقول ما دمنا على وجه البسيطة: قابلنا ياسر عرفات وتحدّثنا معه، وعشنا في زمن أبي عمّار !

وكلّما قبّلت حفيدي تذكرت أنّ القبلة منك!